**السلطة بين الدولة والدين في الفكر القديم، بحث في الأصول**

**أ. د. إحسان الديك**

**جامعة النجاح الوطنية، فلسطين**

**بحث مقدم إلى ندوة الدولة والدين**

**القيروان 19-20 ابريل 2018**

**مقدمة:**

ليس غريباً أن يظل الباحثون مختلفين حول أصل السلطة ونشأتها، وأن يبقى هذا الأصل مجهولاً، خاضعاً للتخمين، لأن السلطة تضرب في أعماق الزمن، وتعود إلى ما قبل التاريخ البشري المكتوب، وفجر السلالات.

فالسلطة من أسبق الظواهر وجوداً، وأكثرها حضوراً في توجيه حياة الإنسان، وأشدها تأثيراً في نشاطاته الفردية والجماعية، وستظل خالدة مع الإنسان في سيرته الدنيوية، بدائياً كان أو متحضراً، يحرث الأرض بالمعول أو الجرافة، قبل الدولة وبعدها، معها ودونها.

وجدت السلطة في كل العصور والأماكن والأوقاف، فحيثما وجدت جماعة مجتمعة مع بعضها بعضاً، انقسمت هذه الجماعة بفطرة وتلقائية إلى "حكام ومحكومين، الطرفين الأساسيين في معادلة السلطة"([[1]](#footnote-1))، لذا، فالسلطة والمجتمع صنوان لا ينفصمان، والسلطة واقعة اجتماعية لا وجود لها خارج إطار الجماعة التي لا وجود لها من غير سلطة تدير شؤونها.

وكما اختلف الدارسون حول أصل مصطلح السلطة، اختلفوا في دلالاته، فإذا ورد هذا المصطلح غفلاً من أي نعت أو إضافة أو تعريف، فإن معناه ينصرف إلى السياسة وسلطتها، ذلك أنه كما يقول ريمون آرون: "مثلما لا توجد جماعة إنسانية دون سياسة، فلا توجد سياسة دون سلطة تسمح بممارسة السياسة، وتأدية مهامها، وتحمل مسؤولياتها، فالمجتمع قرين السياسة، والسياسة قرينة السلطة، والسلطة قرينة المسؤولية"([[2]](#footnote-2)).

وفي الوقوف على الأصول الأولى للسلطة، وعلاقتها بالسياسي، باعتبارها ظاهرة إنسانية عامة؛ إعادة اعتبار للذات الشرقية، وتقدير لدور العقل الشرقي القديم في تأملاته الأولى حول السلطة، ونفي لمعظم الدراسات الاستشراقية الغربية التي تصّر على "الأصول الغربية للتأملات الإنسانية الأولى في ظاهرة السلطة السياسية التي عدّتها نتاجات إبداعية خاصة، وميزة للحضارة اليونانية الإغريقية"([[3]](#footnote-3)).

**أصل السلطة:**

لعل البحث في أصل السلطة، ومعرفة مصدر شرعيتها، هل هو مصدر بشري إنساني اجتماعي، قابل للنقد والمساءلة والتغيير والتعديل؟ أم هو مصدر إلهي غيبي ديني مقدس، منزل من السماء، لا يمكن للبشر الاعتراض عليه، ولا يأتيه الباطل بين يديه، يقرّبنا من بدايات هذه الظاهرة، ويضعنا على تخومها، ويفسر لنا ما غمض من دلالاتها.

ولعل علة السلطة الأولى تكمن في معرفة ذهنية الإنسان القديم التي تقوم على اتحاد عناصر الكون في الجوهر، فلا فروق جوهرية بين الأشياء – الطبيعة والمجتمع – التي قد تتحد وتتناوب وتتبادل وتتماثل، لذا بدا الكون في تلك الذهنية منشوراً "يتلاشى فيه اللون الواحد في اللون الآخر دون حدّ فاصل بينهما، وأن اللون الواحد فيه، قد يتحول إلى الآخر في ظروف متعاقبة"([[4]](#footnote-4)).

لم تكن عند الإنسان القديم ثنائية ذهنية تجعل العالم عالمين "أحدهما سماوياً لاهوتياً، و الآخر أرضياً إنسانياً، بل هو يتعامل مع اللاهوت كبعد من أبعاد الواقع، ويتعامل مع الواقع المادي كموجود محسوس لعالم أوسع منه"([[5]](#footnote-5))، لذا انعدم الحد الفاصل بين الإله والإنسان الذي يجعلنا نقول عنده: "هنا يتغير الجوهر من الإلهي المافوق إنساني الخالد إلى الدنيوي الإنساني الفاني"([[6]](#footnote-6))، فاعتقد ذاك الإنسان أن المجتمع البشري جزء من مجتمع الكون الأكبر، إذ لم يفصل – كما نفعل اليوم – بين الجامد والحي، وإنما رأى في كل شيء روحاً وإرادة وحياة كما الإنسان، فبدا الكون كله نظاماً من الإرادات منسقاً في شكل مجتمع مبني على السلطة([[7]](#footnote-7)).

اعتنى الإنسان القديم بالتاريخ المقدس أكثر من عنايته بالتاريخ الدنيوي، ودفعته هذه العناية إلى إغفال دوره، ونسبة كل إنجازاته وابتكاراته الحضارية في الرعي والزراعة والصناعة والعمران إلى الآلهة. "فالإله لا الإنسان كان أول فلاح وأول راع وأول من حلب البقر وصنع الزبدة والجبن. وأول من طحن وخبز الخبز، وأول من صنع المحراث"([[8]](#footnote-8))، ورأى أن كل مؤسساته وقوانينه وتشريعاته ابتكرتها الآلهة من أجله وأنزلتها من السماء، وهي التي شيدت المدن العظيمة، بل كل ما يفعله الإنسان في دنياه إنما يجيء على صورة ما فعلته الآلهة في البدء أو صممته وخططت له ووهبته للإنسان بالوحي والحلم والإلهام.

ورأى ذاك الإنسان أيضاً أن مصدر السلطة في المجتمعين البشري والكوني هو إرادة إلهية، وأن السلطة الإلهية هذه نابعة من علاقة الآلهة الوثيقة بقوى هذا الكون، وظواهره الطبيعية، ومظاهر الحياة فيه، فلكل مظهر فيه إله، إله للشمس، وآخر للماء، وثالث للأرض، ورابع للهواء .... ([[9]](#footnote-9))، والكوني يحكمه إله أكبر بيده السلطة المطلقة، هو (آنو) في بلاد ما بين النهرين، و(رع) إله الشمس في مصر القديمة.

كان آنو عند البابليين "أبا الآلهة، فهو النموذج الأول لكل الآباء، ولما كان أيضاً الملك والحاكم الأقدم، فهو النموذج الأولي لكل الحكام، والشارات التي ترمز إلى جوهر الملك، كالصولجان، والتاج، ورباط الرأس، وعصا الراعي، هي شاراته، ولا تستمد إلا منه، وهذه الشارات قد وجدت قبل أن يعين أي ملك بين البشر، وقد كانت كلها في السماء بين يدي آنو، ومن هناك هبطت إلى الأرض"([[10]](#footnote-10)).

أما في مصر، فلأن "مصر ابنة رع الوحيدة، وفرعون ابن رع الوحيد ... فمن واجب رع نفسه أن يضمن لأرض مصر حكماً إلهياً، ولتطلّعه إلى المستقبل كان يتردد على الأرض ليلد لها حكاماً، من هنا كان الملك هو الابن الجسدي الذي جاء من صلب الإله، الشمس، رع"([[11]](#footnote-11)).

**سلطة المعبد:**

هيمنة العقيدة الدينية السابقة على عقل الإنسان القديم وذهنه، حكمت علاقة الناسوت باللاهوت، فالأرض في اعتقادهم ملك للآلهة، وهم (البشر) عبيد لها، يخدمونها، ويوفرون لها سبل الراحة والرفاه([[12]](#footnote-12))، ولا غرابة – في ظل هذه العقيدة – أن يكون المعبد – بيت الإله في الأرض – منبع السلطة ومصدرها، منها انبثقت السلطة الأولى في عصر العبيد، وقبل نشوء الحكام في عصر السلالات، أمسك كهنته الأوائل بزمامها، وأداروا شؤون الناس، ودليل ذلك بقاء الصبغة الدينية على الحكام في العصور التالية، فكان هناك الكاهن الأكبر / الأعلى (سنكوماخ) قبل أن تنشأ وظيفة الملك([[13]](#footnote-13))، وكان الحكام يلقبون أنفسهم (أي ايشاكو)([[14]](#footnote-14)) أي وكيل الإله الذي يستمد سلطته منه، ويمثله، ويحكم باسمه.

هكذا كانت نظرة الإنسان القديم لهذا البيت وللسلطة الصادرة عنه، ولمن يمارسها باسمه "فكل سلطة كانت تأتي منه، سواء جاءت باسم أمير، أو كاهن، أو ملك مؤلّه، أو حاكم صغير، لأن السلطة ذاتها لم تكن سوى تعبير عن إرادة إلهية"([[15]](#footnote-15)).

بهذا مثل المعبد لاهوتية السلطة المدنية، فكان مؤسسة دينية تراثية عريقة، ذات تقاليد وأعراف، نظم العلاقة بين الدولة ورعاياها، وحال دون استبداد الحكام، وحوّل انتماء الفرد وولاءه من العائلة والقبيلة إليه، فكان مهوى أفئدة العباد، وملتقى تطلعاتهم، وملاذ المظلومين، ومرجع المستغيثين، ورمز وحدة المجتمع والتوازن فيه.

ولقد حدّدت هذه العلاقة الدينية طبيعة المدينة القديمة وشكلها وتخطيطها في الشرق القديم، وصار المعبد نقطة الارتكاز، ومركز الحياة، ومحور الحركة، ومظهر النشاط فيها، فيه ينصب الملك أو الحاكم، ويتسلم شارات الملكية الهابطة من السماء أمام تمثال الإله([[16]](#footnote-16))، ويلحق به جناح خاص ملاصق يسمى (كيبار) يقيم فيه الملك([[17]](#footnote-17))، ويحتوي على المخازن والمشاغل، وإليه تتبع معظم الأراضي والممتلكات، إنه مملكة الإله في الأرض، وحلقة الوصل بين الآلهة والبشر، وبؤرة الحياة الدينية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وأس الحركة والعمران.

ولأن المعبد من أهم مظاهر السلطة، وثمرة العلاقة الوثيقة بين الحاكم والإله، لذا كان بناؤه وتجديده وتزويده بالتماثيل والأثاث وفق الشعائر الدينية، من أهم واجبات الحاكم([[18]](#footnote-18))، ولكثرة عناية الحكام والملوك ببناء المعابد، غدت العمارة في بلاد الرافدين عمارة دينية([[19]](#footnote-19)). أخذنا منها معظم معلوماتنا عن تلك الشعوب، وفي كنف المعبد تطورت الكتابة لتسجيل موارده ومصاريفه وديونه، وتمثل دوره الرئيس في حفظ التوازن الاقتصادي من خلال ملكيته لكثير من الأراضي التي كان يخصص ريع جزء منها لصيانته، وآخر يوزع على العاملين فيه مقابل خدماتهم، وثالث يؤجر لقاء سهم من الإنتاج([[20]](#footnote-20)).

**سلطة الملك:**

كان للملك في الفكر القديم مكانة مكينة، ومنزلة عالية وصلت حدّ القداسة والعبادة بوصفه إلها أو شبيها بالإله، أو ممثلاً للآلهة على الأرض. ذلك أن السلطة الملكية – كما رأينا – لم تكن سلطة دنيوية ابتكرتها الحضارة الإنسانية، وإنما هي سلطة إلهية مقدسة أوجدتها الآلهة زمن الخلق والتكوين، حين خلقت الكائنات التي تمشي على أربع، وأرست قواعد أول مدينة للبشر، تقول أسطورة بابلية:

" بعد أن قام الآلهة آنو وإنليل وإنكي

بخلق الكائنات الإنسانية

انبعثت المزروعات وتمت الأرض

وتم بحذق ومهارة خلق الكائنات التي تدب على أربع

بعد أن تم إنزال الملوكية من السماء

وبعد أن تم إنزال التاج السامي والعرش من السماء

بعد ذلك بنى الآلهة المدن الخمس الأولى وأسكنوا فيها البشر"([[21]](#footnote-21)).

وتحكي لنا أسطورة "إيتانا والنسر" – التي وردت إلينا من العصر البابلي القديم مؤسسة لأصل الملوكية – كيف أخذت الآلهة تبحث عن إنسان يشغل منصب الملك، فوجدته في إيتانا الرجل الطيب الصالح، الذي كان عقيماً لا ينجب ولداً يخلفه، فعمّ الاضطراب، وخاف الناس من خلو المنصب وتعرضهم للشر والكوارث، ففكر إيتانا في الأمر، وتضرع للإله شمس بأن يمكنه من الصعود إلى السماء، لجلب نبات خاض بالولادة، وبعد مرور هذا الملك بمواقف صعبة وأحداث مثيرة مع النسر والأفعى. وبرعاية من الإله شمس صعد إلى السماء وتمكن من إنجاب ابن له يخلفه في الحكم([[22]](#footnote-22)). تقول هذه الأسطورة في وصف الآلهة التي اجتمعت تبحث عن ملك:

"لم يكونوا قد أقاموا ملكاً على الناس قاطبة.

ولم يكن التاج وعصابة الرأس، حينئذ قد أوثقا معاً

ولم يكن أحد بعد، قد لوح بصولجان الملك

ولم تكن منصة العرش ايضاً قد رفعت

بعد ذلك هبطت الملكية من السماء

كانت عشتار في ذلك الوقت تبحث عن راع

كانت تبحث هنا وهناك عن ملك

وإنليل يبحث عن منصة عرش لإيتانا

الشاب الذي كانت عشتار لا تني تبحث عنه"([[23]](#footnote-23))

فالآلهة هي التي أسست لأصل الملوكية، وخلقت منصب الملك في الأزمان الأولى، وهي التي حددت شاراته ورموزه، وجعلته وراثياً من خلال نبتة الإخصاب.

حين ظهر لقب الملك (لوكال) في السومرية، ويعني الرجل العظيم، ظل هذا اللقب محتفظاً بأصله الكهنوتي، وظل يرشح بالدلالات الدينية، فهو المدير والمدبّر، ينوب عن الإله في إدارة شؤون البلاد والعباد، كما ظل مرتبطاً بالمعبد (أي كال) / هيكل / البيت العظيم لغة ووظيفة.

ففي المعبد كان يتم تتويج الملك، وتسليم شارات الملك المقدسة من مجلس الإلهة أمام تمثال الإله في معبد المدينة الرئيس، جاء في نص أشوري في وصف حفل التتويج: "يقصد الملك الجديد معبد الإله آنو، حيث الشارات الملكية مودعة في المعبد في منصاتها الخاصة، وكان الملك يُحمل على عرش على أكتاف الرجال بموكب حافل، ويسبق الموكب كاهن يضرب بطبل ويصيح: آشور هو الملك، آشور هو الملك، وبعد أن يصل الموكب إلى المعبد يدخله الملك، وأول ما يفعل أنه يقبّل الأرض، ويحرق البخور، ثم يعتلي منصة عالية في نهاية المعبد حيث يقوم تمثال الإله، وهنا يسجد أيضاً، ويلمس الأرض بناصيته، ويقدم أمام تمثال الإله هدايا يحملها خصيصاً لهذه المناسبة"([[24]](#footnote-24)) .

ومن المعبد كان ينقل الطعام الذي كان يوضع يومياً أمام صورة الإله إلى مائدة الملك طعاماً له، بعد الحصول على بركة الإله فيه([[25]](#footnote-25))، وفي المعبد كان الملك يقدم تقاريره للإله وليس إلى الشعب، بكتابتها على مخاريط من الطين أو الآجر، ودفنها بعيداً عن أعين الناس، وفيه تتم استشارة الإله حول أمور السلطة المهمة، وقرارات الدولة الرئيسة([[26]](#footnote-26)).

وعليه أن يصدع لأوامر الإله، وينفذ مشيئته بطرق شتى، منها "قد يتلقى أمراً منه عن طريق حدث خارق أو عجيب يرى فيه الكهان إشارة يؤولونها بموجب قوائم طويلة تدرج فيها الإشارات ومعانيها. أو قد يطلب الجواب على سؤال بتضحية حيوان للإله، وقراءة رسالة الإله في الشكل الذي تتخذه كبد الضحية، والطريق المباشر للاتصال بالإله هو الأحلام"([[27]](#footnote-27)) التي تتم عادة في المعبد، بعد تقديم الأضحية والصلاة، ثم النوم، حينئذ يظهر الإله للملك في حلمه ويوصيه بما يريد.

لم يكن الاهتمام ببيت الإله مظهراً من مظاهر التقوى، وإنما كان واجباً مقدساً معروفاً عند الشعوب القديمة، وكما نزلت الملكية من السماء، كذلك كان قرار بناء المعبد أو إعادة إعماره يتخذه الإله ويخبر به الملك عن طريق الحلم([[28]](#footnote-28)).

وإمعاناً في تماهي الديني في الدنيوي، وتأكيداً على سلطة الملك الزمانية والمكانية، جاء مقر سلطة حكمه قصره، شبيهاً بمقر الإله وسلطته على الأرض / المعبد، ومقارباً له تصميماً ووظيفة، وليس غريباً أن كان "أصل المعبد العام – عند الإغريق – في قصر الملك، إذ لما كان الملك في عهد الملوك رأس المجتمع، فقد كان يقيم في ساحة قصره مذبحاً للعبادة، فصار هذا معبد المدينة، أي معبد دولة المدينة، وعندما انقضى عهد الملوك، واختفت مع الملوك قصورهم، حافظ الناس على تلك المزارات، وعلى تماثيلها المعدة للعبادة، وبنو لهذا الغرض بيوتاً خاصة بالمزارات، فصارت هذه بيوتاً خاصة بالعبادة، أي معابد"([[29]](#footnote-29)).

وأياً كان الاعتقاد حول نشوء السلطة في الحضارتين القديمتين المصرية والعراقية، فقد ظل الملك مقدساً صاحب الحق الإلهي والسلطان المطلق، هو الإله أو ابنه، "فكان أخناتون في مصر القديمة الابن الوحيد للإله آتون، وأعلن سرجون الأكادي في العراق القديم أنه ابن الإله"([[30]](#footnote-30))، وكتب اسم الملك مسبوقاً بعلامة التأليه التي تسبق عادة أسماء الآلهة، وجمع بين يديه السلطتين الدينية والدنيوية، وما انبثق عنهما من وظائف وسلطات مركبة، وكان أقدس من أن يخاطبه أحد من البشر مباشرة، أي لا يتكلم معه، وإنما يتكلم في حضرته، وعليه أن يلجأ إلى أساليب غير مباشرة لتجنب الإشارة إلى الملك، وصاحب تجنب التــّماس اللفظي بأبهة الملك وجلاله، تجنب التّماس الجسمي لشخصه وشارات الملكية أيضاً([[31]](#footnote-31)).

لم تقتصر سلطة الملك – باعتباره إلها أو شبيهاً بالإله – على البشر، وإنما امتدت للسيطرة على الطبيعة والحفاظ على انتظام الكون، ومحاربة قوى الدمار والعماء، حرصاً على وجود الناس وسعادتهم، عن طريق الطقوس السحرية التشاكلية التي كان يمارسها للتأثير فيها فعلاً وحركة، وليس قولاً ودعاء ورجاء، من ذلك الزواج الإلهي المقدس الذي كان يقام في رأس كل سنة لبعث الخضب في الطبيعة / الإنسان والحيوان والنبات، بأن يتقمص الملك دور الإله، والكاهنة الكبرى دور الإلهة، ويمارسان هذا الطقس الجنسي في غرفة بزاقورة المعبد، وبتلبسهما هذا الدور يستطيعان تسخير سلطة الآلهة وقوتها لبعث التناسل في الكون.

وحرصاً على ديمومة هذه السلطة واستمرارها، كان لا بد من تطهيرها لتجددها في شخص الملك الذي كان يجرد من سلطاته أمام الإله، فيعترف بأخطائه، ثم يعيد إليه الكاهن شعائر هذه السلطة، ولم يكن هذا الطقس تقليداً مجرداً من الحيوية، بل كان نتيجة نظرة للتاريخ يتم فيها تقييم معنى السلطة ورسالتها بشكل دوري للملك، واتسع مبدأ هذا التطهير، فغدا تشريعاً يشمل الناس والأرض عند الكنعانيين والعبرانيين فيما بعد([[32]](#footnote-32))، نقول ترنيمة لشولكي:

"أيتها الآلهة: سأقوم بإتمام الطقوس التي تنظم ملوكيتي لك

سأكمل لك الأسلوب المقدس

ومهما كانت الضحايا المتعلقة بيوم الهلال الجديد ويوم السنة الجديدة

ساقدمها لك"([[33]](#footnote-33)).

ومن قبيل هذا الحرص، ولارتباط السلطة بالقوة / قوة مصدرها الإلهي، وقوة ممثلها الملك، لذا كان على الملك حين تبدأ قوته بالانهيار والضعف أن يلجأ لتدمير نفسه أو إعدامه والتخلص منه، حتى تنتقل جذوة الملوكية للملك الذي يليه، كما كانوا يلجأون إلى طقس الملك البديل([[34]](#footnote-34)) إذا تعرض الملك الحقيقي لخطر يتهدده، أو أشار الطالع إلى وقوع كارثة طبيعية مثل الخسوف أو الكسوف أو زلزال، أو غير ذلك من الكوارث الطبيعية، أو في حال قيام الملك ببعض الشعائر الخطرة الخاصة بالملوكية مع وجود نذر مخيفة وغامضة تهدد الناس والمملكة، فلا ينبغي تعرضه للخطر لأنه وديعة الآلهة عند البشر، وموته يؤدي لاختلال نظام الكون.

**السلطة والطاعة:**

تبدو الطاعة في فكر الإنسان القديم فضيلة كبرى، نابعة من معتقده الديني، فما دام الإنسان خلق لعبادة الآلهة وخدمتها، وما دام الملك مثل الإله على الأرض، لذا غدت طاعته من أولى الفضائل، لاستحالة وجود مجتمع بشري منظم من غير سلطة عليا تفرض إرادتها، فقال: "الجنود بلا ملك خراف بلا راع"([[35]](#footnote-35))، مما جعل أفراد المجتمع يشعرون دائماً أن السلطة على حق وصواب مهما فعلت، فقالوا: "أوامر الملك كأوامر (آنو) لا تتبدّل، كلمة الملك حق، ونطقه كنطق الإله لا يغيّره شيء"([[36]](#footnote-36)).

لا عجب أن تكون الحياة الفاضلة في فكر الإنسان القديم هي الحياة المطيعة، وألا ينتظر هذا الانسان جزاء مؤكداً مقابل طاعته، لاعتقاده أن ما يتحقق له من خير هو فضل تتفضل به الآلهة والسلطة عليه. لأن الطاعة والخدمة والعبادة هي طريق الحماية وسبيل النجاح، ولا اعتراض على ما يصيبه من مصائب وشرور، فعليه أن يرضى بما قسمت له الآلهة، كما حصل مع جلجامش، وأن يكون عبداً مطيعاً كما أيوب البابلي، العبد الصالح المعذب، لأنه لا يمكن تطبيق القيم البشرية على الأحكام الإلهية التي لا يُدرك كنهها، ولا الحكمة منها، لقصر نظره، وقصور عقله، جاء على لسان العبد الصالح البابلي: "إن ما يبدو صحيحاً فيستحق الثناء بعين المرء، قد يكون محتقراً بأعين الآلهة، وما قد يترآى من أنه قبيح رديء، قد يكون حسناً بعين إله المرء، فمن ذا الذي يستطيع أن يدرك فكر الآلهة وقصدها في أعماق السماء، إن أفكار الآلهة كالمياه العميقة، فمن يستطيع سَبْر غورها؟ وكيف يستطيع البشر وهم محفوفون بالظلام أن يدركوا قصد الآلهة وطرقها؟"([[37]](#footnote-37))

**السلطة والعدالة:**

اعتقد الإنسان القديم أن العدالة إحدى الفضائل التي أودعتها الآلهة في البشر، فارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالسلطة السياسية، وكانت حقاً لكل إنسان وليست منّة من أحد، لأنها كما الملوكية تجسيد لإرادة الإلهية التي غايتها العدل بين الناس، لذا فرضتها على الملوك والحكام، وجعلتها جوهر حكمهم، وأوصتهم بتطبيقها، هذا ما قالته الآلهة لجلجامش:

"لقد وهبك سلطاناً على الشعب لا نظير له

وجعل لك النصر في المعارك ...

ولكن لا تسيء استخدام هذه القوة

عامل خدمك في القصر بالعدل

كن عادلاً أمام وجه شمس"([[38]](#footnote-38))

فالإله "شمس" إله العدالة، ينشر ضوءه بالتساوي على الأرض دون تمييز، وقد عدّه حمورابي سيد الحقائق يوحي بها لمن يشاء من البشر كما أوحاها إليه، وهذا التصور يجعل العراقيين القدماء أول من رسم مخططاً للديمقراطية والعدالة([[39]](#footnote-39)).

كما حذرتهم من عدم الأخذ بالعدل بين الناس، وهددتهم بملاحقتهم والغضب عليهم، وتغيير مصيرهم:

"إذا لم يطبّق الملك العدالة في أرضه

فإن أيا Aia ملك الأقدار سيغير قدره

وسوف لن يتوقف عن ملاحقته"([[40]](#footnote-40))

فالآلهة هي التي تمسك بصولجان العدالة، وهي التي تمنحه للملك أو الحاكم الذي اختارته، والإيمان بمصدرها الإلهي ركن أساس من أركان السلطة السياسية، وطريق للوصول إلى سدة الحكم، وسبيل إلى رضا الآلهة والناس([[41]](#footnote-41)).

ولقد حرص ملوك العراق القديم على حضور العدالة في خطابهم السياسي، وتوظيف هذه العقيدة الدينية في قوانينهم ومراسيمهم الملكية، لإضفاء الشرعية السياسية والدينية على سلطتهم الحاكمة، فكثرت النصوص التي تصف الملك بالعدل، وتعددت التسميات والصفات التي خلعها الملك على نفسه والتي ترتد على العدالة، وتمت لها بصلة وثيقة، مثل: "ينبوع العدالة"([[42]](#footnote-42))، و"حامي العدالة"، و"ملك العدالة"([[43]](#footnote-43))، ذلك لأنهم يترجمون إرادة الآلهة مصدر وجودهم، ومبرر بقائهم.

وفي مصر الفرعونية كانت اللفظة "معات" تعنى العدالة، وهي إحدى الخصائص الجوهرية للدولة المصرية، وأن هذه العدالة كما يبدو، لم تكن موضوعة في قوانين ولوائح سوابق، بل يتم التعبير عنها بالمعالجة المثلى في كل ما يتعلق بالأشخاص والأحوال، إذ يحث الحاكم الموكل بالعدالة أن يقضي بها ناظراً إلى الحاجة، بل أن يمنح ما يزيد عن الاستحقاق، وهكذا فإن الدولة كانت راضية بالمسؤولية المترتبة عليها للعمل بإبداع ومبادرة حسبما تقتضيه حاجات الأمة"([[44]](#footnote-44)).

لقد كان الفرعون إلها مطلق الحكم، وعُدّ مصدراً للعدالة، تصدر عنه القوانين معبرة عن إرادته ومشيئته متى أراد وبالشكل الذي يريد([[45]](#footnote-45)).

وهكذا، نرى كيف هيمنت العقيدة الدينية بروحها ومنطقها على عقل الإنسان القديم، حتى غدا هذا العقل صورة عن الدين، فانعكس ذلك على صفحة السلطة التي نهلت من هذا المنهل، وتوارت خلف أفكاره فجاءت متماهية معه، لا انفصام لها عنه، مما تعذر الفصل بين ما هو ديني وما هو دنيوي، وما هو سياسي أو غير سياسي، مما جعل الفكر الشرقي مشرباً بالدين، وغدا الحاكم / الملك / راعي السلطة إلها أو شبيها به، في يديه مفاتيح الحياة، على الناس الاتكال عليه، والثقة بقدراته وطاقاته العليا الهابطة من السماء.

**المراجــع**

اخريف، محمد: الدين في الحضارات القديمة، مدونات الجزيرة نت، 15/6/2017.

الأعرجي، حسين: مفهوم العدالة في الثقافة السياسية في العراق القديم، مجلة القادسية، العراق، العددان 3-4، المجلد 7، السنة 2008

كريمر، صموئيل نوح: أساطير العالم القديم، ترجمة: أحمد عبد الحميد يوسف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974،

باقر، طه: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ط2، شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد، 1955م،

بشور، وديع: سومر وأكاد، دمشق، 1981م،

حسن، محمد خليفة: الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم، بغداد، 1988،

حنون، نائل: شريعة حمورابي، بيت الحكمة، بغداد، 2003، 1/11.

الحوراني، يوسف: البنية الذهنية في الشرق المتوسطي الآسيوي القديم، ط1، دار النهار، بيروت، 1978،

ذيبان، جمال مولود: تطور فكرة العدل في القوانين العراقية القديمة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2001،

1. رشيد، فوزي: الشرائع العراقية القديمة، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1979م،

ساكز، هاري: عظمة بابل، موجز حضارة وادي دجلة والفراق القديمة، ترجمة عامر سليمان، ط1، لندن، 1966.

سليمان، عامر: القانون في العراق القديم، ط2، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1987،

السواح، فراس: الأسطورة والمعنى، ط2، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، 2001،

السواح، فراس: مدخل إلى نصوص الشرق القديم، ط1، دار علاء الدين، دمشق، 2006،

الطعان، عبد الرضا، وآخرون، موسوعة الفكر السياسي عبر العصور، ابن النديم للنشر والتوزيع، دار الروافد الثقافية، pdf،

عبد الهادي، ماهر: السلطة السياسية في نظرية الدولة، دار النهضة العربية، ط2، القاهرة، 1984،

علي، فاضل عبد الواحد: سومر أسطورة وملحمة، ط1، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، 1999،

فرانكفورت، هنري: ما قبل الفلسفة، الإنسان في مغامراته الفكرية الأولى، ترجمة جبراء إبراهيم جبرا، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1982،

كريمر، صموئيل: اينانا ودموزي، طقوس الجنس المقدس عند السومريين، ترجمة نهاد خياطة، ط2، دار علاء الدين، دمشق، 1993،

كريمر، صموئيل: أساطير العالم القديم، ترجمة: أحمد عبد الحميد يوسف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974،

كوك، صموئيل هنري: الأساطير في بلاد ما بين النهرين، ترجمة يوسف داود عبد القادر، دار الجمهورية للطباعة، بغداد، 1968م،

الماجدي، خزعل: متون سومر، ط1، الاهلية للنشر والتوزيع، عمّان، 1998م،

الناهي، صلاح الدين: العدالة في تراث وادي الرافدين،

1. () عبد الهادي، ماهر: السلطة السياسية في نظرية الدولة، دار النهضة العربية، ط2، القاهرة، 1984، ص26. [↑](#footnote-ref-1)
2. () الطعان، عبد الرضا، وآخرون، موسوعة الفكر السياسي عبر العصور، ابن النديم للنشر والتوزيع، دار الروافد الثقافية، pdf، ص24. [↑](#footnote-ref-2)
3. () المرجع السابق، ص33. [↑](#footnote-ref-3)
4. () فرانكفورت، هنري: ما قبل الفلسفة، الإنسان في مغامراته الفكرية الأولى، ترجمة جبراء إبراهيم جبرا، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1982، ص80. [↑](#footnote-ref-4)
5. () الحوراني، يوسف: البنية الذهنية في الشرق المتوسطي الآسيوي القديم، ط1، دار النهار، بيروت، 1978، ص181. [↑](#footnote-ref-5)
6. () فرانكفورت، هنري: ما قبل الفلسفة، ص83. [↑](#footnote-ref-6)
7. () المرجع السابق، ص175. [↑](#footnote-ref-7)
8. () السواح، فراس: الأسطورة والمعنى، ط2، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، 2001، ص51. [↑](#footnote-ref-8)
9. () باقر، طه: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ط2، شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد، 1955م، 1/247. [↑](#footnote-ref-9)
10. () فرانفكورت: ما قبل الفلسفة ص161+162. [↑](#footnote-ref-10)
11. () المرع السابق، ص90. [↑](#footnote-ref-11)
12. () الماجدي، خزعل: متون سومر، ط1، الاهلية للنشر والتوزيع، عمّان، 1998م، ص265. [↑](#footnote-ref-12)
13. () باقر، طه: مقدمة في تاريخ الحضارات، 1/377. [↑](#footnote-ref-13)
14. () المرجع السابق، والصفحة السابقة. [↑](#footnote-ref-14)
15. () الحوراني، يوسف: البنية الذهنية في الشرق المتوسطي، ص372. [↑](#footnote-ref-15)
16. () باقر، طه: مقدمة في تاريخ الحضارات، 1/377. [↑](#footnote-ref-16)
17. () اخريف، محمد: الدين في الحضارات القديمة، مدونات الجزيرة نت، 15/6/2017. [↑](#footnote-ref-17)
18. () علي، فاضل عبد الواحد: سومر أسطورة وملحمة، ط1، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، 1999، ص361. [↑](#footnote-ref-18)
19. () كريمر، صموئيل: اينانا ودموزي، طقوس الجنس المقدس عند السومريين، ترجمة نهاد خياطة، ط2، دار علاء الدين، دمشق، 1993، ص25. [↑](#footnote-ref-19)
20. () الحوراني، يوسف: البنية الذهنية في الشرق المتوسطي، ص383، وانظر: بشور، وديع: سومر وأكاد، دمشق، 1981م، ص116. [↑](#footnote-ref-20)
21. () السواح، فراس: مدخل إلى نصوص الشرق القديم، ط1، دار علاء الدين، دمشق، 2006، ص118. [↑](#footnote-ref-21)
22. () انظر في هذه الأسطورة: كريمر، صموئيل نوح: أساطير العالم القديم، ترجمة: أحمد عبد الحميد يوسف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974، ص104، وكوك، صموئيل هنري: الأساطير في بلاد ما بين النهرين، ترجمة يوسف داود عبد القادر، دار الجمهورية للطباعة، بغداد، 1968م، ص54. [↑](#footnote-ref-22)
23. () السواح، فراس: الأسطورة والمعنى، ص51. [↑](#footnote-ref-23)
24. () باقر، طه: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، 1/396-397. [↑](#footnote-ref-24)
25. () الحوراني، يوسف: البنية الذهنية في الشرق المتوسطي، ص387. [↑](#footnote-ref-25)
26. () ساكز، هاري: عظمة بابل، موجز حضارة وادي دجلة والفراق القديمة، ترجمة عامر سليمان، ط1، لندن، 1966. [↑](#footnote-ref-26)
27. () فرانكفورت: ما قبل الفلسفة ص224. [↑](#footnote-ref-27)
28. () المرجع السابق، ص418. [↑](#footnote-ref-28)
29. () باقر، طه: مقدمة في تاريخ الحضارات، 2/558. [↑](#footnote-ref-29)
30. () الطعان، عبد الرضا، وآخرون: موسوعة الفكر السياسي عبر العصور، ص36. [↑](#footnote-ref-30)
31. () فرانكفورت، هنري: ما قبل الفلسفة، ص93. [↑](#footnote-ref-31)
32. () ينظر الحوراني، يوسف: البنية الذهنية الحضارية في الشرق المتوسطي، ص394. [↑](#footnote-ref-32)
33. () ساكز، هاري: عظمة بابل، ص436+437. [↑](#footnote-ref-33)
34. () انظر: ساكزهاري: عظمة بابل، ص416. [↑](#footnote-ref-34)
35. () فرانكفورت، هنري: ما قبل الفلسفة، ص240. [↑](#footnote-ref-35)
36. () باقر، طه: مقدمة في تاريخ الحضارات، 1/243. [↑](#footnote-ref-36)
37. () حسن، محمد خليفة: الأسطورة والتاريخ في التراث الشرقي القديم، بغداد، 1988، ص161-162. [↑](#footnote-ref-37)
38. () الأعرجي، حسين: مفهوم العدالة في الثقافة السياسية في العراق القديم، مجلة القادسية، العراق، العددان 3-4، المجلد 7، السنة 2008، ص5. [↑](#footnote-ref-38)
39. () الناهي، صلاح الدين: العدالة في تراث وادي الرافدين، ص26. [↑](#footnote-ref-39)
40. ()الأعرجي، حسين: مفهوم العدالة في الثقافة السياسية في العراق القديم، مجلة القادسية، العراق، العددان 3-4، المجلد 7، السنة 2008، ص5.

    (2) حنون، نائل: شريعة حمورابي، بيت الحكمة، بغداد، 2003، 1/11. [↑](#footnote-ref-40)
41. حنون، نائل: شريعة حمورابي، بيت الحكمة، بغداد، 2003، 1/11. [↑](#footnote-ref-41)
42. 3)سليمان، عامر: القانون في العراق القديم، ط2، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1987، ص149

    (4) ذيبان، جمال مولود: تطور فكرة العدل في القوانين العراقية القديمة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2001، ص149. [↑](#footnote-ref-42)
43. [↑](#footnote-ref-43)
44. (فرانكفورت، هنري: ما قبل الفلسفة، ص101. [↑](#footnote-ref-44)
45. () رشيد، فوزي: الشرائع العراقية القديمة، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1979م، ص14. [↑](#footnote-ref-45)